الفصل الأول

موقف الشاعر من الحياة والعالم

•المبحث الأول (التجربة الذاتية)

- موقفه من المرأة
- موقفه من البادية
- موقفه من المدينة

• المبحث الثاني (الموقف الغيري)

- القضايا السياسية
- الحرية
- القومية العربية

• المبحث الثالث (فلسفة الموت والحياة عند سليمان الفليّح)

المبحث الأول

التجربة الذاتية

- موقفه من المرأة
- موقفه من البادية
- موقفه من المدينة

التجربة الذاتية:

تُعد التجربة الذاتية تعبيراً عن أحاسيس الشاعر الذاتية الخاصة،

وهذه الذاتية سمة من سمات الشعر المعاصر، حيث إن الشاعر يُوقد ويُشعل وجدانه، ويجعله متيقظاً لما يدور في خلجات نفسه وأعماق شعوره، ويخرج هذه التجربة من رحم التسجيل إلى عالم الوجود.

وقد سعى الشاعر الحديث إلى تسجيل موقف خاص تأثر به، وتفاعل معه، وهذه التجربة ترسم خيال الشاعر وتوقعاته في عبارات رصينة، وإشارات رمزية، تجعله يضع نموذجاً شعرياً حياً، يسير نحوه تجاه موقفه بصدق الإحساس وعمق العاطفة.

وقد زخرت تجربة الفليّح الذاتية بعدة مواقف، هي:

(أ) موقفه من المرأة.

(ب) موقفه من البادية.

(ج) موقفه من المدينة.

(أ) موقفه من المرأة:

كانت المرأة وما زالت المحور الرئيس لموضوع الشعر العربي، سواء القديم أو المعاصر؛ حيث «شكّلت المرأة في المجتمعات الإنسانية

عنصراً مهماً عبر تاريخ البشرية، بدءاً من عهد آدم، ووصولاً إلى مجتمعات العصر الحديث»[1]، وقد أخذت المرأة الحيّز الأكبر في الشعر الحديث، حيث إنها تمثل المحور الأبرز في الموضوعات الشعرية «شغلت المرأة الشاعر قديماً، وهي تستأثر باهتمامه في العصر الحديث، بيد أن النظرة إليها تختلف باختلاف الموقف الفكري والعاطفي، فلم يعد الحديث عنها حديث إعجاب بالمرأة؛ بجمال الجسد، أو طهارة النفس وسمو الخلق، وإنما امتد من الإعجاب بالمرأة وتقديس جمالها إلى الدفاع عن حقوقها، وبيان المظالم التي ترتكب بحقها»[2].

وقد اندمج موضوع المرأة في القصيدة الحديثة، مع موضوعات أخرى يعبّر عنها الشاعر من خلال رمزيته، فلم تعد المرأة محور الغزل والحب فقط؛ «لأن الشعر الذي يعبر عن الحب، لم يعد ينقل عاطفة مفردة بسيطة، وإنما ينقل غابة متشابكة الغصون من العواطف والمشاعر»[3]، «فتناولوا قضاياها ومشكلاتها الاجتماعية في أشعارهم ودراساتهم؛ لأنهم يرون في المرأة الأم والحبيبة، والمرأة

(1) محمد، فراس الحج، (واقع المرأة في المجتمع ما قبل الإسلام)، عود الند، المجلة الثقافية الشهرية، العدد 49، تموز 7 يوليو 2010، فلسطين، الناشر عدلي الهواري.

(2) السيوفي، مصطفى، (تاريخ الأدب العربي الحديث)، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، ش. م. م، القاهرة، مصر، 2008، ط 1، ص 106.

(3) عباس، إحسان، (اتجاهات الشعر العربي العاصر)، دار الشرق للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، (د.ت)، ط 3، ص 135.

الشريفة والمرأة الوضيعة»[1].

وتبرز أهمية موضوع المرأة في الشعر كونها «الدعامة الثانية التي تقوم عليها حياة البشر»[2].

وقد ظهر اهتمام الشاعر سليمان الفليّح بصورة المرأة في شعره، فكانت الجوهر والمظهر، حيث تُجسد المرأة محوراً مهماً في نصوص الفليّح كونها تحمل رمزاً اجتماعياً ونفسياً بارزاً، فهي عنده تعبّر عن الحياة والأمل، وعن الصحراء والجمال، وعن الأمان والاستقرار، عن الحزن والألم، وكانت محيطه الذي يعيش في فلكه، فقد أولاها اهتماماً خاصاً يظهر على شعره وفكره، ومشاركته في كثير من آلامه وهمومه، فالمرأة ملهمة قريحته، وأمله النابض بالحياة، وقد تعددت وتنوعت صورة المرأة في شعر الفليّح تبعاً لتنوع مواقفه تجاهها، منها:

1. موقفه من الأم:

الأم عند سليمان الفليّح هي ملجأ الحنان، ومنبع الأمان الذي يحتويه في صد التنبؤات المخيفة التي يحملها الزمن القادم، يقول في ذلك:

وحلمتُ الليلة يا أمي

(1) الجرم، أحمد محمد، (اتجاهات نقد الشعر الليبي الحديث)، منشورات أكتوبر، 2010م، ط 1، ص 148.

(2) الضمور، يوسف عبدالمجيد فالح، (صورة المرأة في شعر خليل مطران)، رسالة ماجستير في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، 2011م، ص 35.

بريـاح تجتاح المرعى
تقمعُ خيلي
تطرد إبلي
تجلدني علناً بالأفعى
تربطني إذ أعطشُ دمي
توسعني يا أمي قمعا [1].

يثور إحساس الشاعر بالخوف من المستقبل القادم من خلال استخدام صيغ الرؤى المنامية (حلمتُ، تقمع، تطرد، تجلدني، تربطني، توسعني)، فكلّ هذه المفردات توحي بمدى الرعب والاضطراب الذي يحسّه الشاعر تجاه المستقبل المجهول، ويقول: (وحلمتُ الليلة يا أمي)، فالأم هنا تعبّر عن الاضطرابات التي يحملها الزمن القادم بكل رموزه، وهي تعبّر أيضاً عن أمومتها وخوفها على أبنائها، وقد وجد فيها الشاعر الأمان الكامل الذي يبحث عنه في صد توجساته المخيفة من المستقبل القادم.

2. موقفه من الزوجة:

ويعيش الشاعر لحظة الوفاء الخالص والود العميق للمرأة التي بذلت وقدّمت له العشق والمحبة، فهي زوجته وشريكة عمره، وأم

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 609.

أبنائه.

يقول:

مذ كنت فتاة أحلامي
وصرت ورد إلهامي
فقدمت لي الأزهار
من باسم.. إلى سامي
إلى سعودٍ.. إلى سعدٍ
إلى مساعد.. وأسامة وبسام
ومن سامية الحلوة
إلى سهام ثم سوسن
إلى ابتسام ثم أسماء
وكنت سرّي السامي [1].

3. موقفه من الابنة:

يصوّر الشاعر مدى حنانه وحبه لابنته التي يرى فيها نفسه؛ لأنها قطعة منه وهو قطعة منها.

يقول الشاعر في وصف ابنته (أسماء):

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 609.

أيا أسماء
يا أجمل البنات
بل أجمل النساء
ويا حبيبتي
يا ابنتي
ويا شروق الشمس في الصباح
ويا ضياء البدر في المساء
يا وردة الروح الجميلة
يا جميلة
تهبُّ بالعطر
يا زهرة العمر[1].

وعندما يعيش الشاعر لحظة السعادة مع ابنتيه، يرى الكون كله سعيداً وجميلاً، يقول:

وتدندن أعواد (العرفج) لحن البهجة
كي يرقص نوّار السهل
بمناسبة أفراح السيدة الصحراء
يمتطي زهر خزامى كسلان
ويهب عبير (القيصوم)

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 219.

لينعش أعماق الروح الجرداء
وردٌ يضحك كما تضحك ابنتاي [1].

4. موقفه من الحبيبة:

كان هذا الموقف يتّسم بالعفّة، والحب النبيل، حيث يقول في ذلك:

المهاءات ترتاض في بيد روحي
وتقطف من شجر القلب
تعدو، وتقفزُ
ولها الهجر، والقطع، وما بين بين
ولها الاندفاع الحميم
وأقصى الصلة.
***
أحب المهاءات حباً مريعاً
فظيعاً
أحب المهاءات حتى الوله [2].

وعندما يمزج الشاعر بين جمال المحبوبة وجمال الطبيعة، تبرز لدينا معالم لوحة فنية رائعة التصوير، يقول الفليّح:

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 622.
(2) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 570.

تنتشي الروح إذ تنشرين الأريج البهيج
بكل مناحي الحياة
يتشابك زهرك / عطرك
تغدين فيضاً شفيفاً من الماء والعشب
إن مسه الضوء
انعكس الغيم فيه
تواشج لون الورود
وشكل السحاب[1].

ويقول أيضاً:

سياجُ ضفائرك الآن بيني وبين النجوم التي ترتعش
في فضاء البراري البعيدة.
يتسلل منهنّ ضوءٌ بهيجٌ يذوب على وجنتيك اللتين
تماوجن بالخجل القرمزي، وهدأتهم العتيدة
ويرحل بي خافقٌ متعبٌ نحو أهدابك المتعبات
يتعتعه ريحُ شوقٍ عجيبٍ[2].

ويصوّر لنا الشاعر رحلة الشوق التي قضاها بين وجنات محبوبته التي يملؤها الخجل، وبين أهدابها المتعبات، فكانت

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 315.
(2) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 75.

من أعجب اللحظات وأصعبها عنده؛ حيث اختلط شعور الشوق والحنين بشعور التعب والاضطراب.

ويقول في موضع آخر:

آه... أيتها العربية الوجه والوجد
وآخر كل المهاءات في البيد بهذا الزمان البخيل
وأجمل ما خلق الله
من نسوةٍ فاتنات
وما ترك العصر لي من جمالٍ أصيل
فكنت جزيرة همٍّ وغمّ
شواطئ مسكونة بالجنون [1].

يعبّر الشاعر هنا عن مدى توجعه وحزنه الشديد على محبوبته التي كان يتغنى بجمالها، وفتنتها، ويحيا بقربها، لم يبق له الزمان مثيلا لها، فصفاتها تستحيل أن تجتمع بامرأة أخرى، حيث صورها بالمرأة العربية في حُسنها، وعفتها، وأصالتها، فكانت بمثابة الوطن، والجزيرة التي استقر بها رغم أجواء الهم والغم التي تحيط بشواطئ هذه الجزيرة.

وقد اتّسمت صورة المرأة في شعر الفليّح بأنها الأمن الكامل، والوفاء النبيل، والحنان اللطيف، والحب العفيف، والطبيعة الخلّابة.

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 165.

(ب) موقفه من البادية:

أخذت البادية في الشعر المعاصر أبعادها المختلفة، وامتزجت رؤية الشاعر بمشهد الصحراء الذي يستدعي حضورها - بوصفها رمزاً - انعكاساً لامتدادها في مخيلة الشاعر، ليكون أكثر رحابةً من غيره في تلقي الواقع والتفاعل معه، وقد تفاوت الشعراء من حيث استلهامهم لعالم الصحراء وتفاصيلها من رمال وعشب وتضاريس وتصور كامل (لثقافة الصحراء) التي اختصرها الناقد السعودي الأستاذ سعد البازعي نقلاً عن الأستاذ عبدالله نور:

«إنها العالم السديمي الممتد بغموضه ورهبته وتقلباته، عالم الرمل الراحل أبداً، والصحراء الجرداء، والمطر الشحيح الذي لا يعرف جدولاً ثابتاً، المطر الذي يأتي ولا يأتي، والثقافة هنا هي نتاج ذلك التفاعل وتاريخه، وإعلان الإنسان المتواصل عن بقائه في عالم الريح والرمل والمطر الشحيح، وعن حبه لذلك البقاء وقبوله لتحدياته، والثقافة أيضاً هي محصلة الرغبة الإنسانية الدفينة في أنسنة الطبيعة، وملء فضاء اختلافها بألفة الوجود، وهي التفاصيل التي يرسمها الإنسان على جسد الأشياء

الخارجية، جماع أحلامه ورؤاه، إنها ذلك الزجل الذي ملأ به البدوي فضاء إلهامه ورهبتها منذ الفجر الجاهلي الأول، هي تلك الدعوات والتطلعات التي سقى بملاحمها الإنسانية عطش الصحراء، واستسقى بإيقاعاتها المطر والخصوبة»[1].

وقد برع الشاعر المعاصر في تصوير البادية وتمثيلها حتى لكأننا نراها ماثلة أمام أعيننا، والسر العظيم في ذلك يكمن في أنها «تراث قريب حي، وحين يلجأ إليها الشاعر لا يحس أنه مثقل بما في الماضي الطويل من خلافات ومشكلات»[2].

وقد تميزت قصائد الشاعر سليمان الفليّح بأنها اختلطت بروح البادية ونباتاتها وحيواناتها، حتى غدت قطعة من نفسه وجزءاً من حياته، وكان ديوانه الأول (الغناء في صحراء الألم) صورة مبسطة لعالم الصحراء الواسع، فلا ريب أن أخذت الصحراء من قصائده النصيب الأكبر؛ فهو ابن الصحراء الذي نشأ وترعرع بين أكنافها، وعرف نسائمها ورياحها، واستمد منها تجارب حياته، وهي موطنه، لذلك يهرب إليها لينجو بروحه من سطوة المدن والتمدن فيقول:

في روحك أهرب يا وطني من زيف المدن الموبوءة

(1) البازعي، سعد، (ثقافة الصحراء، دراسات في أدب الجزيرة العربية المعاصر)، العبيكان للطباعة والنشر، الرياض، 1991م، ط 1، ص 32.

(2) السيوفي، مصطفى، (تاريخ الأدب العربي الحديث)، ص 115 بتصرف.

كالذئب وحيداً في الغيهب، يعوي عبر رياح البر
واجهني برقٌ في الظلمة أحرق ماء حشاشة روحي
رشَّ بعينيّ ضوء القفر
وعلى الضوء رأيتُ طيوراً نائمةً
فاجأها البرقُ، وأفزعها
فانتفضتْ رعباً لتفرّ[1].

وهنا يشرح الفليّح السبب الذي دعاه للهروب إلى وطنه (الصحراء) حيث يُلاحظ على الشاعر أنه خرج عن العادة، فالإنسان يهرب من الشيء خوفاً منه، ولكن الشاعر هنا يهرب إلى الصحراء حباً فيها، وفرحاً بها ليجد فيها الأمن والراحة من زيف المدن وخداعها.

وتبقى الصحراء هي الأمنية الخالدة، والذكرى الجميلة؛ لأنها مصدر إلهام الشاعر وحنينه، وذلك من خلال استعراضه لعدد من صحاري الجزيرة الممتدة على تضاريسها الواسعة، وما ذلك إلّا أنه وجد في عالم الصحراء ضالته النّقية، وبغيته الجميلة، يقول الفليّح في ذلك:

وحينما يهُدّنا الإعياء
نُقعي على أبراجِها الطويلةِ الصقيلةِ الملساء
نرنو إلى صحرائِنا البعيدةِ الخرساء

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 193.

فنُطلِقُ العواء
يشُدّنا الحنينُ للصمّانِ والدهناء
أو (الحماد) أو سيناء
وللسهولِ، والوهادِ، والشُعَب [1].

يقف الشاعر عند استفهامات عميقة من خلال استعراضه لشريط حياته الذي تمثل في الصحراء، وعلى ثراها حيث رعى الغنم، والإبل، وعاش حياة الصعلكة، والتجوال، يقول الفليّح:

فما يُهمكِ أنني ولدتُ في الصحراءِ
أو عشتُ في البريةِ؟
أو أنني رعيتُ الضأنَ في الحمادِ
أو أنني رعيتُ الإبلَ في الدهناءِ والنفودِ والصّمان؟
أو أنني قد عشتُ (متصعلكاً) شريد
وحدي أجوبُ البيد[2].

ويرسم الشاعر صورة جمالية وخيالية لصحراء الصَّمان في نجد، يقول فيها:

صحونٌ خضراء يملؤها المطر
وتغمسُ فيها الريحُ
تلالٌ تراكوازيةٌ تُقعي عليها العقبانُ

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 394.
(2) نفسه، ص 537.

قطعانُ نياقٍ تتناثرُ في الأنحاءِ
سحبٌ داكنةٌ تسيرُ بلا اتجاه[1]

أما عندما يصوّر الشاعر مأساة الجفاف وما تخلّفه من هلاك محقق لعالم الصحراء، فإن ذلك يُعد بمثابة ناقوس الخطر الذي يهدد عالم الصحراء الجميل، يقول في وصف ذلك:

الإبلُ في صحرائنا
تشوي، وتجترُ التراب
والسلُّ يمتصُ النخاع
والموتُ يقتحمُ البيوت
الذئبُ جاع
والطيرُ من سغبٍ يموت
وكلابُنا تعوي النجوم
بين البيوتِ السودِ في وضح النهار
أين الحياة ؟!
يا ألف آه[2].

وقد ارتبطت صورة البادية والصحراء عند الفليّح بالحياة المليئة بالترحال، والتجوال، فيقول في ذلك:

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 388.
(2) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 67.

أذكرُ في أعوامِ البدو الرّحل
نحو الشجر النامي عبرَ الآل
وسياطِ الشمسِ تُقرّحُنا
ببقايا تلكَ الأسمالِ
يشوينا الرملُ، فلا نخشى
أشباحَ الموت البرية...
يحدونا شوقُ التجوال...[1].

ويصف الشاعر جمال الصحراء حينما تزهو بألوان الربيع في صورة جمالية فنية تأسر الألباب:

أجراس الزهر تدندن في غسق لازوردي في الصحراء
والكون حقولٌ لونية؛ حمراء، صفراء، خضراء [2].

ويرسل الشاعر عبر أبياته أصدق التحيات وأعذبها إلى أمه الصحراء صانعة المجد، وحافظة العهد، يقول:

سلامًا لسيدة المجد؛ نجد
أميرة كل الصحارى،
وأم الحفاة البداة،
الذين رقوا قمة المجد

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 59.
(2) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 201.

سادوا على الفقر، والقفر[1].

وعندما يكون اغتيال الصحراء هاجسا يؤرق الشاعر، تكون مفرداته موحية بالخوف والرعب على هذا العالم النقي، يقول الفليّح:

على كثبانِك الصفرا
كان الحنظلُ البري بين السدر والحلفا
يواصلُ زحفهُ الأبدي فوقَ الأرض ملتفا
وكانت من لهيبِ الشمس تأتيني رياحٌ تنفضُ الأغصانَ والسعفا
لتذرو الرملَ في وجهي، ويشويني شواظٌ يسبقُ العصفا
ليلغي وجهي المكدود من ترحاله البدوي عبر الليل
من منفى إلى منفى
وحين العصفُ داهمني يدوّي مثل قنبلةٍ
تنامى الخوفُ في قلبي
ونزَّ القلب، وارتجفا[2].

يظهر خوف الشاعر جليا على عالم الصحراء النقي من خلال استخدامه العبارات القلقة المضطربة، مثل (يواصل زحفه الأبدي ملتفا، تنفض، داهمني، قنبلة، ونز القلب وارتجفا).

وهكذا نجد الفليّح قد عشق البادية وعشق الصحراء بكل ما أُوتي

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 375.
(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 56.

من مشاعر حيث بادلته الحنان والعطف والحب، وهذا ما يطلبه من هذا العالم النقي الجميل، فكانت الصحراء حاضرة في جل قصائده من خلال تصويره الحسي والفني، مما يُشعره بالأمان من زيف الحياة، وخداعها.

(ج) موقفه من المدينة:

تعتبر المدينة في الشعر مظهراً من مظاهر الحداثة، وقد بدأ الاهتمام بموضوع المدينة في الشعر المعاصر حتى تحولت إلى شرط حداثي من شروط تجديد الرؤى، وغدت مفهوماً من مفاهيم الشعر المتطورة، وقلما نجد شاعراً حديثاً؛ شرقياً أو غربياً، لم يتعرض لمسألة المدينة، ولكنها تأخذ دلالات وصيغاً وأشكالاً ومعانيَ تختلف باختلاف الاتجاه الأدبي؛ «فتبدو العلاقة في بدايتها بالمدينة علاقة رفض وعداء وغربة، ويبدأ الشاعر بالعودة إلى موطنه الأول، يهرب إليه من واقعه الجديد الذي حالت ظروف موضوعية دون التكيف، بيد أن موقف الشاعر من القرية والمدينة ليس واحداً عند كل الشعراء، فمن مظاهر آثار المدينة في نفس الشاعر ما يتصل بفقدان (النقاء) المعنوي في المدينة يوازيها حنين عميق إلى صفاء الريف وبُعده عن الرذائل»[1].

وهذا الرفض والعداء ليس إلا عدم أُلفة وانسجام مع هذا المحيط

(1) السيوفي، مصطفى، (تاريخ الأدب العربي الحديث)، ص 110.

الجديد بكل تفاصيله، «فالصدام بينهم وبين المدينة لا يعني مقتاً للحضارة ووسائلها، إنما هو تعبير عن (عدم الألفة) بينهم وبين البيئة الجديدة؛ لأسباب مختلفة»[1].

وقد اختلف النقاد في رأيهم: هل كان هذا الرفض نابعاً من الشاعر العربي على مدينته؟ أم أنه تقليد للشاعر الغربي الذي أعلن الثورة على مدينته وحضارته، «فليس من الإنصاف أن نجرد شعراءنا من أصالتهم، إذ لا يعني سبق الشاعر الغربي إلى موضوع ما كالمدينة مثلاً أنه هو الأصل وغيره عالة عليه، فربما جاء من الشعراء من يبرز في موضوع سبقه إليه آخرون، ولو أننا اعتمدنا السبق وحده معياراً للأصالة لأسقطنا من التراث الإنساني معظمه»[2].

وقد كانت تجارب الشعراء المهاجرين إلى المدن دائماً تعبر عن الاغتراب النفسي والاجتماعي الذي أصابهم.

ويقول السيوفي نقلاً عن إحسان عباس في توضيح الاتجاهات في موقف الشاعر المعاصر من المدينة:

- «رد فعل رومانسي خالص يتفاوت قوةً وضعفاً بحسب أسباب موصولة بنشأة الشاعر ونفسيته، وعن هذا الاتجاه يتولد خلق المدن موهومة، أو تضخيم للريف على حساب المدينة.

- تشكل المدينة بحسب الانتماء العقائدي أو الوضع النفسي

(1) عباس، إحسان، (اتجاهات الشعر العربي المعاصر)، ص90.

(2) علي غالي، مختار، (المدينة في الشعر العربي المعاصر)، عالم المعرفة، أبريل1995م، (د، ط) ص9.

الفردي، فالمدينة (وعاء) لا يتغير، وإنما الذي يتغير هو البنية التركيبية في مؤسساتها السياسية أو انتهائها، من خلال العلاقة بينها وبين الشاعر، أو من خلال أزمة يعانيها الشاعر نفسه.

– اعتبار المدينة واقعاً مسطحاً ينعكس على وجهه تمزق الشاعر أو التوتر الوجودي بينه وبين المدينة.

– اعتبار المدينة (الغربية) رمزاً للحضارة الحديثة، والثورة عليها»[1].

كانت المدينة عند سليمان الفليّح رمزاً للصخب والضجيج والهجرة، وعدم الألفة، وكان يجد في الانكفاء على نفسه أماناً له مما يعانيه من مقت لسلوكيات الحياة في المدينة التي يشوبها الكثير من النفاق، وهو يشعر بصراع حاد بين الحرية والسلطة.

حين تتحول المدن الموبوءة إلى أثاليلَ ميتة منتشرة، يجب قطعها والتخلص منها حتى لا تنتشر هذه الأوبئة، يقول الفليّح:

شاهدت المدن الموبوءة
تنمو كثآليل ميتةٍ فوق صحارٍ ميتةٍ
تتناثر فيها كالفطر[2].

وحين يضيق الشاعر من المدينة وأهلها، يرى الوجود يكتسي لون الرماد والرصاص لأنه اللون الذي يصحب الحزن والضيق

(1) السيوفي، مصطفى، (تاريخ الأدب العربي الحديث)، ص 112.
(2) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 51.

والسوداوية، يقول الفليّح:

كانت سماءُ المدينة
رصاصية مثل أحزاننا، والغيوم
تؤرجحها الريحُ مجنونة باتجاه اليمين
لتصفع فيها غصون الشجر[1].

وهنا يبدأ نوع من الالتقاء بين الشاعر والمدينة، واكتشاف جوانب جديدة من تجربة الحياة بها، تدعو إلى إعادة النظر في حقيقتها، يقول الفليّح:

الذي يترنح من مطلع الأغنية
فله أمنية
وهي أن يرسم الآن شكلاً جميلاً لوجه المدينة
يغيّر فيه الشوارع، والطرقات القمئية، والأبنية
ولكنه عندما يبدأ العمل – لحلم
تخذله الأمنية[2].

وتبدو المدينة كئيبة قبيحة الوجه أمام الشاعر، حيث إنها ترفل في أغلال العبودية، أو تمارس مع أهلها الظلم، والاستعباد، يقول الفليّح:

هذي المدن اللائي فيها اللقمة

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 87.
(2) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 126.

تخنق في أفواه بنيها الكلمة
هذي المدن اللائي فيها الصمت المطبق حكمة!![1].

وعندما يكون الشعور بالوحدة قوياً وظاهراً تصبح المدينة بكل معالمها، حزينةً باكيةً متفاعلةً مع إحساس الشاعر، يقول الفليّح في ذلك:

أرفعُ في آذانِ المدنِ الصَّماءِ الصوت
أصرخُ في أسماعِ العالم
عبرَ ضجيجِ مصانعهِ
ومزارعهِ، وشوارعهِ، ومدارسهِ، ومعابدهِ، وجوامعهِ
أطرقُ أبوابَ العالم.. بيتاً، بيتاً
كي أوقظَ كلّ الملكوتِ [2].

ومن هنا نجد أن المدينة كانت عند الشاعر عالماً مضطرباً مليئاً بالضجيج ويسوده النفاق، حتى إننا لنجد انتماءه إلى الصحراء أقوى من انتمائه للمدينة.

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 115.
(2) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 627.

المبحث الثاني

الموقف الغيري

(أ) القضايا السياسية

(ب) الحرية

(ج) القومية العربية

الموقف الغيري:

إن اهتمام الشعر العربي المعاصر بالقضايا المحيطة على اختلاف أنواعها ليس شيئاً غريباً على طبيعة الأديب؛ «فنحن نفترض على الأديب المعاصر حصيلة وافرة من الثقافة والخبرة، فضلاً عن حس مرهف وإدراك سليم للأمور، ودقة في ملاحظة الحياة وتطورها الظاهري والباطني، وهذه الميزات لا تسمح للأديب أن يعيش في عزلة عن قضايا مجتمعه ومشكلاته، بل الأحرى أنها تشده إليها شداً»[1]، وتجعله أكثر ارتباطاً بتربة وطنه وإنسانه العربي، والتعرف على ما لهذا المجتمع من قسوة وشدة، وخاصة في الظروف السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية التي كان يعاني منها الشعب العربي بعد هزيمته في حرب فلسطين التي كان لها وقعها الخاص على نفس كل عربي مسلم، وعند ملاحظتنا علاقة الشعر المعاصر بقضاياه «فإننا نلمح في هذا الشعر – رغم التفاوت في تقييمه – انفتاحاً كبيراً على مشكلات الإنسان، وقدرته على تفجير الوعي الداخلي عند الشعوب العربية»[2].

والحق أن الشعر فن سامٍ، يشحذ الهمم في الوصول إلى الغاية القصوى، والرغبة العظمىً لتحقيق الوحدة الشعورية، والرؤية

(1) إسماعيل عز الدين، (الشعر العربي المعاصر – قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية)، ص374.
(2) عباس، إحسان، (اتجاهات الشعر العربي المعاصر)، ص 157.

المستقبلية لحياة الشعوب العربية والاهتمام بقضاياها المعاصرة، ومن أهمها:

(أ) القضايا السياسية:

إن الظروف السياسية التي يمر بها الوطن العربي في عصرنا الحديث تستوجب على الشاعر أن يجسّد روح الأخوة والدفاع عن القضايا التي تمس الوطن العربي، حتى إننا نراها أصبحت من المسلّمات التي يجب الدفاع عنها، والشعر المعاصر في هذه الأثناء يسجّل موقفاً بطولياً ودفاعياً في تصويره لمعنى الجسد الواحد، ونرى الشاعر المعاصر ليس فرداً مستقلاً بذاته، بل إنه أصبح منبراً ومرجعاً لبعض الشعراء، حيث يقرأون مضمونه النصي، وتوجهه السياسي، ولا شك أن الأديب العربي يحمل مخزوناً ثقافياً وأدبياً يجعله متطلعاً لما يدور من حوله من تحولات، وتغيرات في الساحة السياسية، وهذا يُكسبه عزماً على تخطي هذه الأزمات والتداعيات التي تعصف بالأمة.

أما موقف الشاعر سليمان الفليّح من القضايا السياسية، فقد شغلت هذه القضايا والمتغيرات التي تمر بالأمة الإسلامية اهتمام الشاعر، حتى إننا لنراه في جُل قصائده يعيش الهم العربي، كيف لا؟ وهو يرى واجبه الشعري يحتّم عليه الدفاع عن القضايا التي تمس وحدة العرب، وهو جزء من هذا الوطن، ويجب عليه تسجيل موقف إيجابي

تجاه تلك القضايا الكبرى التي تمس الوطن الأمة العربية والإسلامية، وكذلك قناعته الكبرى المتأصلة بوحدة المصير، وأيضاً بُعد التصور للقضايا السياسية التي اجتاحت المجتمع العربي، كل ذلك كان له بالغ الأثر على شعره؛ حيث إن اهتمام الفليّح انصب على معظم القضايا السياسية المحيطة بالبلاد العربية والإسلامية، ومن أبرزها:

(1) قضية فلسطين:

نرى الفليّح يجسّد صورة الشعب الفلسطيني الذي تميّز بالبطولة والشجاعة حيث يُذبَّح يومياً، ثم ينهض شامخاً قوياً كالجمل، يقول:

قفوا أيها البدو.. سلوا الخناجر، هيا
إذن للضيوف اذبحوهم إليه طعاماً !!
فقد مات جوعاً
وقهراً
بعير المحامل[1].

يطلب الشاعر في المقطوعة السابقة أن يتوقف البدو عن ذبح بعير المحامل، ويطلب منهم أن يسلوا الخناجر ويذبحوا هؤلاء الضيوف الغربيين ويقدموهم طعاماً لهذا البعير؛ لأنه قد تجرع الجوع والقهر، وبعير المحامل رمز للشعب الفلسطيني الذي قدم كل التضحيات

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 121.

وما زال يقدم في صورة يملؤها الإيثار والتضحية في سبيل المحافظة والتمسك بالأرض.

(2) حرب جنوب لبنان:

ونلمح صرخة شاعرنا على شلالات الدماء، وسقوط أطفال لبنان الذين قضوا حتفهم جرّاء حرب الجنوب اللبناني في قصيدة (معزوفة الجنوب)، يقول:

بعيونِ تجّارِ الحروبِ المتخمينَ كما البيادق
وعلى وحولِ الدمِ حيثُ الريحُ تعوي في المفارق
شاهدتُ أُفقاً أسودا
مثل الهزيمةِ في العيونِ المدلهمةِ / كالحرائق
وكشعرِ «ليلى» – إن أردتم –
يا عاشقي عصراً به، الوثنيُّ عاشق
وبه المفكرُ مجرمٌ
والشاعرُ الموهوبُ آبق
وعلى بقايا الهيكلِ العظمي للعزِّ القديم
شاهدتُ أطفالَ الجنوبِ،
يتساقطونَ كما الزنابق[1].

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 89.

يصوّر الشاعر عمق الكارثة الإنسانية التي وقعت في جنوب لبنان، ومدى تأثره بمشاهد الدم والدمار خلال هذه الحرب التي لم تبقِ ولم تذر معلما إلّا دمرته، وقضت عليه.

وهنا يستخدم الشاعر نبات (الزنبق *)، وهو زهر الياسمين في تشبيهه للأطفال الذين يسقطون ضحايا خلال هذه الحروب التي لا ذنب لهم فيها، واختيار الشاعر لهذا النبات الأبيض الجميل دلالة على الطهر والبراءة لهؤلاء الأطفال.

(3) قضية الشرق الأوسط:

ويمتد تطلع الفليّح إلى أبعاد ورؤى سياسية، حيث يصوّر حال الشرق الأوسط، وما فيه من ثروات طبيعية ونفطية، وتجسيد أطماع العالم الخارجي في سلب هذه الثروات، يقول:

هذا هو الشرقُ
ناقةُ الله تكتظُّ أثداؤُها بالحليبِ
تمدُّ لها الناقلاتُ خراطِيمها في الرسو
وتقلعُ ملآنةً بالحليب
لتطلقَ في سمعِها الصافرات[1].

(*) (الزنبق): هو دهن الياسمين، مختار الصحاح، أبو بكر محمد الرازي، طبعة مدققة كاملة التشكيل، ومميزة المداخل، مكتبة لبنان، دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، 1989م، ص 336.

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 169.

في هذه المقطوعة يصوّر الشاعر الخيرات التي تنعم بها دول الشرق الأوسط وذلك بتوظيفه مفردة (الحليب)، التي تحمل دلالة على الثروة النفطية، وما يتخللها من أطماع خارجية، تحاول نهب هذه المقدّرات عن طريق تصديرها لبلادهم واستباحتها.

(4) غزو الكويت:

كان في أوائل التسعينات الميلادية على يد الجيش العراقي الذي يُعد بمثابة الفاجعة التي أذهلت العالم العربي والإسلامي.

يصور الفليّح المأساة التي عمّت أرجاء الكويت في أثناء الغزو وما تخللها من ذكريات تؤجج عاطفة الشاعر المليئة بالحزن، يقول في ذلك:

تئز الشظية، يضطرب الموج
تهوي، تفجّر قصرُ السلام
ويشمخُ في قلبكِ الصلبُ وجهُ الأمير
إلى وجهةِ الخلفِ يا صاحبي تستدير
وتطلقُ في كل صوبٍ رصاصَ الحنين
وتحصي الصحاب
شهيدٌ / فقيدٌ / جريحٌ / أسير
تضجُ البنادق

ينسحبُ البحرُ تعوي الجراجيرُ من (ريحة) الدم
تهتزُ إحدى الصواري
حمامٌ يطير
غدا الملحُ ماءً نميراً
غدا الرملُ مسكاً يضوعُ
غدا الموتُ حلماً قصيراً
غدا القلبُ كل الكويت[1].

ويصف الفليّح مدى وقع هذه الخيانة على شعب الكويت من خلال ذكر صورة القصف والغزو في اليوم الأول للكويت، وما خلّفه هذا الاحتلال من دمار وضحايا بشرية، فيقول في قصيدة «الدفاع عن شهيدة القلب»:

وعبرَ اشتباكِ الهجوم
تداخلَ وجهُ العدوِ الصديق،
ووجهِ الصديقِ العميل
ناقلاتُ الجنودِ تدوسُ على زهرةِ العاشقينَ
وطفلٌ بجنزيرِ دبابةٍ
دمهُ مع حليبِ الصباحِ يسيل
وأعمى مسجى،

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 153.

وكهلٌ مريضٌ يفرّ من القصفِ في ردهاتِ المصح
حواملُ يسقطنَ من شدةِ الذعر
نسوةٌ ينتظمنَ ببؤسِ العويل
حرابٌ كفمِ المنيةِ تبرقُ في الفوّهات
تقدم.. تقدمَ[1].

(5) الاحتلال الأجنبي للعراق:

كان هذا الاحتلال السبب في قطع العلاقات بين أبناء الشعوب العربية من خلال فرض الحصار على العراق، ومن ثم استباحة ثرواته، فكان لهذا الحصار أثر بالغ على كل مسلم.

وحين يصور الشاعر الفليّح عظم جريمة القتل، والمسوغات التي أدت إلى استباحة هذه الجريمة البشعة بين أفراد الشعب العراقي الواحد، يقول:

كلهم سفلة
القتيلُ، ومن قتلهْ
فذاك يقاتلُ لأجلِ النقود
وذاك يقاتلُ لأجلِ اليهود
وشعبٌ يصفّقُ للقاتلين

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 160.

بكلِّ بلهْ[1].

وقد مثّل الشعر السياسي اهتماماً كبيراً في رسم خريطة الشاعر السياسية، ودفاعه عن كل القضايا التي تدفع الظلم، وتعيد الحق لأهله.

(ب) موقفه من الحرية:

إنّ الحرية هي روح القصيدة، منها تستمد لغتها، ورؤيتها، وتقنيتها، وموضوعها، وحيويتها.

وقد تختلف مفاهيم الحرية للإنسان بقدر اختلاف الحاجة إليها؛ «حيث إن السجين يراها في تحرره من قضبان السجن، والفلسطيني المشرد يراها في استرجاعه لأرضه، والإنسان المظلوم الفقير يراها في بناء مجتمع العدل، وهكذا تعددت صور الحرية ومعانيها في العصر الواحد»[2]، والنفس بطبيعتها الفطرية تميل إلى الحرية والانطلاق والكرامة بحيث «يكون بيان الشاعر صورةً لمزاجه وفكره، وأن يكون أكثر الأدباء رغبةً في الحرية، فمن الحكمة إطلاق العنان له في حدود واسعة، ولو خالف السماح والقياس أحياناً، فإن الشاعر الأمين الكبير النفس لن يسيء

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 339.

(2) انظر إسماعيل، عز الدين، (الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية)، ص 283.

استعمال هذه الحرية في مرماه»[1].

ولا يمكن أن تتحقق حرية الأديب والفنان إلّا إذا توفرت الحرية في المجتمع ككل؛ «لأن حرية الفنان الشخصية لا يمكن أن تتحقق إلّا في مجتمع حر، وهو لكي يكون حراً بحق يتحتم عليه أن يتبنى عقيدة مجتمعه في التحرير»[2].

وقد كان الشاعر سليمان الفليّح متضامناً مع الحرية العربية، التي تهدف إلى توحيد الصف العربي في وجه الاستعمار الأجنبي، وقد كان يرى في الحرية العربية والدعوة إليها إقامة للعدل، والخير والحق.

وهو يرفض الاستبداد بجميع صوره وأشكاله؛ لما له من الأثر الكبير في بث روح الفرقة والنزاع بين أبناء المجتمع الواحد، وما زال الشاعر الفليّح يحمل راية الحرية؛ لأن الشعر هو صوت الحق والعدالة والصدق، يقول في ذلك:

ولم أزل مدافعاً
عن الجمال ضد القبح
الخير ضد الشر
الحق ضد الظلم

(1) أبو شادي، أحمد زكي، (الشفق الباكي نظيم من شؤون وعواطف)، المطبعة السلفية، مصر، 1926م، (د، ط)،، ص 49.

(2) إسماعيل، عزالدين، (الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية)، ص 384.

وداعياً للعدل، والسلام، والحرية[1].

ويقول الفليّح:

يا فرنسا قد مضى وقتُ العتاب
واستعدّي وخذي منا الجواب
إن ثورتنا هي فصلُ الخطاب
فاشهدوا، واشهدوا

***

«اشهدي/ أيتّها النازلاتُ الماحقات
والجبالُ الراسيات الشامخات
نحن اتخذناها حياةً أو ممات
وعقدنا العزمَ أن تحيا الجزائر: فاشهدوا»[2].

في هذه الأبيات يجسّد الشاعر صورة الصمود والالتحام والمقاومة الجزائرية في وجه الاستعمار، وذلك من خلال ثبات الثورة ومسيرتها الشامخة في صد الطغيان، وتبقى مصر ثورة عظيمة في وجه الطغيان والادعاء؛ فهي مصر الإباء، والشموخ والعلو، يقول الفليّح:

ثورةٌ ترفض الادعاء
لذلك أطلقَ للريحِ جناحيهِ.. أوقصَ مثلَ الشهابِ

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 538.
(2) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 583.

وفي الأفقِ غاب
ولكنَّ مصرَ العظيمةَ
تبقى كأهراماتِها
تتحدى طوالَ العصورِ الغياب[1].

(ج) موقفه من القومية العربية:

يُعد مصطلح القومية العربية من المصطلحات الحديثة التي برز حضورها جلياً في الأدب العربي، حيث عرّفها جورج حنا بأنها «عقد اجتماعي في شعبٍ له لغة مشتركة، وجغرافية مشتركة، وتاريخ مشترك، ومصير مشترك، ومصلحة اقتصادية مادية مشتركة، وثقافة نفسية مشتركة، وهذا العقد يجب أن يكون فيه كل هذه المقومات مجتمعة»[2]، وهي تعني أيضاً (شعوراً داخلياً موجوداً عند الفرد العربي، كونّه المزيج من العوامل خلال التاريخ الطويل، والشعور الداخلي هذا قد يخفت في ظرف من الظروف، ويتنبه في ظرف آخر، وذلك ما يدعى بشعور الانتماء والسمة القومية)[3]، إذن القومية العربية هي الإيمان الصادق، واليقين الثابت بوحدة الدم

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 614.
(2) حنا، جورج، (معنى القومية العربية)، بيروت، دار الثقافة، 1957م، (د، ط)، ص 21.
(3) (دور الأدب في الوعي القومي العربي)، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي أعدها ونظمها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، (1986، حزيران / يونيو)، ط4، ص 30.

العربي من خلال تجسيد وحدة الهدف، ووحدة المصير، ونجد أن «الأفكار القومية العربية في مجملها تصر على عدم الاعتراف بشرعية الواقع العربي؛ لأنه لا يبدو مرضياً مقارنةً بما تمتاز به الأمة العربية من مقومات تجعلها في طليعـة الأمم»[1]، فبعد نكبة عام 1948م، ومدى وقع هذه النكبة على كل عربي، ظهرت سمة الحزن والخوف، فكان واجباً على كل شاعر عربي ومسلم يؤمن بوحدة الدم العربي أن يزيل عن نفسه ألم الحزن، من خلال بث روح الأمل والانتصار، ورفع الحس الجمعي لدى الإنسان العربي، عن طريق شعوره بالانتماء إلى الأمة، وهذا الانتماء يصوّر مدى الحضور الإبداعي على الصعيد الثقافي، والعلمي، والمعرفي؛ حيث إن «افتقاد الأمة للهوية المتميزة يعني أمرين:

الأول زيف ذلك الإبداع، والثاني تبعية المبدع لمركز حضاري يستقطبه ويفرض عليه توجيهاً يلبي حاجة المركز لا حاجات أمته، وأن مزيداً من الإبداع العربي يعني مزيداً من الشعور بالانتماء إلى أمته، ومزيداً من الانحياز إلى هويتها» [2].

(1) عواد، هاني، (تحولات مفهوم القومية العربية، من المدى إلى المتخيل) الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2013، ص 51.

(2) مجلة المعرفة السورية، تشرين الأول، أكتوبر 1975، ع 164 ص 100، مقال بعنوان: (الاغتراب الفلسطيني) لمحمد الزايد، وهذا الاقتباس موجود في بحث (الشعر السعودي الحديث وأثره في تعزيز الانتماء العربي الثوابت والمستجدات، ومجدى الخولي، مجلة جامعة دمشق، المجلة 24، 2008، العدد 3+4، ص 210.

وقد مثّل الشعر المعاصر صورة رائعة من اللُّحمة والوحدة في القضايا التي تمس وحدة الأمة العربية.

وسطّر الشاعر سليمان الفليّح معنى القومية العربية من خلال إيمانه العميق بوحدة الدم العربي، ووجوب التلاحم والتعاون بين أبناء الشعوب العربية، فمصيرهم واحد، وهدفهم واحد، لذلك يجب توحيد كلمة الأمة، واستنهاض همتها وقوتها، وتأكيد وجودها وقدرتها على مواجهة الأحداث والأخطار المحدقة بها.

«لا بد للحركة القومية الجديدة من أن تتفاعل وتتحاور مع القوى الثورية الإسلامية، كقوى اجتماعية، وكحقيقة موجودة»[1].

وحين يصوّر الفليّح روح الانتماء والاعتزاز بالقومية العربية يرى فيها نفضاً لغبار الذل، وخلعاً لثوب العار والهوان متطلعاً لفجر القوة والانتصار، يقول:

إنّي أنا العربيّ،
فاسمع يا ورى
إني خلعت الثوب، ثوب العار
ثُرت ضد الذل،
أذللت الـمُذل

(1) حسين، د. خير الدين، (رؤية في القضايا العربية القومية العربية، الوحدة العربية)، بيروت، أكتوبر 2008م، ط 1، ص 61.

(لما كسرت القيد، قيد سلاسلي)
حملتُها كي أصفع الجلاد
في عرنينه
ولكي أكبّل فيها يدي.. مكبّلي.
إلى أن يقول:
وارفلي، يا أمتي،
بثياب عرسك للضياء
قد أقبل الفجر الجلي[1].

ويتخذ الفليّح من وطنه مساحة كبيرة ليتغنى به، وله الحق في الافتخار والاعتزاز بموطنه؛ فهو مهبط الوحي، ومهد الرسالات، وقبلة المسلمين، يقول:

كل عام وأنتِ بخير
أيا سيدة الأرض،
ودار أبي الأنبياء عليه السلام
ومهبط أسمى الرسالات
على آخر الأنبياء
عليه إله البرية صلى وسلم
وأصعده الله من ثاني الحرمين الشريفين

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 548.

إلى أولى القبلتين بلا أي سلّم

***

سلاماً أيا مبعث النور
إذ فيك عصر الجهالة ولى
وصرحُ الظلامِ تهشّم

***

سلاماً لهذا الثرى الطاهر
إذ كان يوماً – يباباً، ففجّر
رب السماوات والأرض
عليه من الصخر ينبوع زمزم
فأحيا به الزرع
والضرع،
أينعَ مرعى خصيباً
لسرحٍ مسوّم[1].

وعندما تهيج قَريحة شاعرنا شجنا وحزناً على مدينة حمص السورية، جرّاء القصف الآثم، والحصار الخانق في ظل الأحداث الأخيرة التي تعانيها المدينة يكون ذلك سبباً لذرف الدموع والبكاء عليها، يقول:

أبكي إذا سقطَ الغبارُ عليها

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 450.

أبكي إذا سقطَ الغبارُ على حمص
عطرُ الخليفة
وأنفاسُ الجبال
ومأوى الأشجار
ثدي العسلِ، ونهرُ الألبانِ، ووردةُ الأريافِ
مزهريةُ الفاكهةِ، وسلةُ الوردِ، والبراءةِ
والقلبُ الشفاف[1].

ونجد في مطلع قصيدة الفليّح (أبكي إذا سقط الغبار عليها) تناصاً من قصيدة ديك الجن الحمصي الذي يقول في ديوانه:

وما كان قتليها لأني لم أكن أبكي إذا سقط الغبار عليها[2]

وقد نجح الشاعر في وصف عاطفته الشديدة لمدينة حمص، من خلال هذا التناص الذي أعطى القصيدة قوةً وجمالا، حيث إنه وظّفه توظيفاً صحيحاً في سياق النص.

وقد شكّلت القومية العربية في شعر الفليّح عقيدة راسخة، وركيزة بارزة يصعب المساومة فيها أو معها؛ لأنه يُشكل جزءًا من انتماء الدم العربي الواحد.

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 387.
(2) ديوان ديك الجن الحمصي، تح |أحمد مطلوب |وعبدالله الجبوري، دار الثقافة، بيروت، لبنان، (د، ط) ص14.

المبحث الثالث

فلسفة الموت والحياة عند سليمان الفليّح

الموت هو مرحلة حياتية أخرى، لا يعرف حقيقتها أو صورتها سوى من عاشها، ويُعد الموت الحقيقية المصيرية والنهاية الحتمية المؤلمة التي لا بد منها، قال تعالى: «كل نفس ذائقة الموت»[1]، «فالموت وحده هو الذي لا يجد الإنسان شفاء له»[2]، وقد يرى الشاعر في الموت كابوساً «يخيم على سمائه، ويحاصره في كل نفس ولحظة، بل ويهدده بالمفاجأة التي يجهل زمانها ومكانها»[3]، ويقول جيمس ب كارس صاحب كتاب الموت والوجود: «وأياً كانت قوة الموت فإن إستراتيجيتنا أمامه أن نمضي بالحياة إلى موقع آخر، وأن نحاول بلوغ مرتبة من الإرادة أعلى لا يمكن لقوة الموت أن تقهرها»[4]، فالشمولية قائمة على التمام، وتظل قضية الموت قضية قديمة بقدم الشعر «ليس غريباً طالما ظل الإنسان، ولكن أن تكون له مثل هذه السطوة على الشعر فهو يستوقف النظر»[5]، وقد أخذ الموت حيزًا كبيراً عند الشاعر القديم من خلال خوفه وتوجسه منه، فالشاعر الجاهلي يتصور أن

(1) سورة آل عمران، الآية 185.

(2) جاك شورون، (الموت في الفكر الغربي)، ترجمة كامل يوسف حسين، راجعه د. إمام عبدالفتاح، عالم المعرفة (د.ت)، ص 48.

(3) هلال، عبدالناصر، (تراجيديا الموت في الشعر العربي المعاصر) مركز الحضارة العربية، (د.ت)، ط1، ص16.

(4) جيمس ب، كارس، (الموت والوجود، دراسة لتصرفات الفناء الإنساني في التراث الديني والفلسفي العالمي)، ترجمة بدر الديب، المجلس الأعلى على الثقافة 1998م، ص 10.

(5) الخراط، إدوار، (شعر الحداثة في مصر) القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، كتابات نقدية، ص 451 وجدت هذا الاقتباس في كتاب عبدالناصر هلال، تراجيديا الموت، ص 18.

الموت لا يرى أي علاقات، ولا يفرق بين قريب وبعيد، وبين صديق وعدو، إنه تدمير فجائي يأتي على كل عزيز، وهذا التصور هو ما يراه طرفة بن العبد في رؤيته للموت حيث يقول:

أرى الموت لا يرعى على ذي قرابةٍ

وإن كان في الدنيا عزيزاً بمقعدِ

وهذه الاستجابة لداعي الموت -وهي استجابة قهرية- ترصدها الذات في مواضع الدهشة والانكسار والاستسلام التام»[1].

أما فلسفة الموت في الشعر الحديث فكانت «الرومانسية في طليعتها قد ارتبطت بالنزعة الذاتية الحزينة التي تستعذب الألم والشقاء؛ لأنها أوغلت في تأمل الوجود، فأصيبت بالجزع والإحساس الدائم بالرهبة، وقد ساعدت في نمو هذه الروح لدى الرومانسيين الظروف المحيطة بهم، مثل المصائب والانكسارات المتوالية والمحن»[2]، وهو ما يجعل سوداوية الموت ورهبته تحاصر الشاعر الحديث، وترعبه باعتباره ألماً يحيط به ويفزعه.

والشاعر عميق التأمل، ودقيق الإحساس في وصف هذه القضية؛ «لأنه أكثر تأملاً في الوجود والعدم، فيستبطن الأشياء، ويتغلغل فيها بحثاً عن حقيقتها، يتابعها وهي في أوج حركتها وديمومتها، إنه

(1) انظر هلال، عبدالناصر، (تراجيديا الموت في الشعر العربي المعاصر)، ص 18.

(2) انظر المرجع السابق، ص 23.

يكسر الحاضر الآني، منطلقاً إلى الآتي»[1].

واستطاع الشاعر المعاصر أن يخرج من دائرة الاستسلام للموت والخنوع له، وذلك بإقباله على الموت في ترقب واشتياق، لهفة وشوقاً.

يقول أبو القاسم الشابي وهو ينازع في أيام احتضاره الأخيرة:

جف سحر الحياة يا قلبي الباكي

فهيا نجرب الموت هيا

فهذا بيت يلفت النظر، بما يتخذه من موقف تجاه الموت، يخالف الموقف المعتاد للمحتضر، فهو بدلاً من أن يعرض استسلام الشاعر لهذا الفناء الذي لا بد منه، يصوره لنا وكأنه يقبل عليه باختياره في لهفة وشوق»[2].

بيد أن هذا التصور الجديد يزيد عنصر التشويق، مما يقودنا إلى رؤية جديدة وهي مقاومة الموت والتعايش معه، «وتكون هذه المقاومة من خلال عدة وسائل، الوسيلة الأولى هي الأمل، والوسيلة الثانية في مقاومة حقيقة الموت هي المحبة، أما الوسيلة الثالثة فهي الكلمة الشعرية، ولا تخفى أهمية هذه الوسيلة في مقاومة الموت؛ لأن الوجود الشعري هو وجود صادق لا يتحرك بين الأشياء على أساس إرادي؛ فلا يقتحم الأشياء، ولا يلبسها ما ليس عندها»[3].

---

(1) انظر هلال، عبدالناصر، (تراجيديا الموت في الشعر العربي المعاصر)، ص 16.

(2) الملائكة، نازك، (قضايا الشعر المعاصر)، دار العلم للملايين، (د.ت)، ط 5، ص 304.

(3) انظر حمود، محمد، (الحداثة في الشعر العربي المعاصر)، الشركة العالمية للكتاب، بيروت 1991م، (د، ط)، ص 290.

والموت بمفهومه الشبحي المخيف الذي ظل طوال العصور يطارد الإنسان تحتم عليه مقاومته والتعايش معه، حتى إننا لنرى تحول موقفه تجاه الموت يضفي على النص نوعاً من الإبداع الجمالي.

واعتمد الفليّح في فلسفة الموت التسليم الكامل بقضاء الله الذي لا مرد له، والإيمان بما يعقب الموت من حياة أخرى أبدية، وهذا التصديق اليقيني بعث في نفس الشاعر الاطمئنان العميق، بأن أمر الله نافذ لا مفر منه، وانحصرت فلسفة الموت في شعره من خلال التسليم التام وذكر لوعة الفراق، ووجع الفقد، وهاجس الابتعاد، وألم الرحيل.

يقول في ذلك:

الذين مضوا
أجمل الأصدقاء
إلى باطن الأرض راحوا، وما ودّعوني
وما قرعوا ردهة القلب يوماً
وقالوا: وداعاً.. وداعاً
تركوني وحيداً
أعاني الشقاء
لماذا مضوا في الحياة سراعاً
كما يمضي السهم

كما يعبر الغيم
رهواً.. شفيفاً
كما يسقط النجم
وما قال لي واحدٌ منهمُ
إننا.. راحلونَ
وفيكَ البقاءُ؟!
لماذا مضوا دونَ أن (يودعوني) ثانيةً
في اللقاءِ؟[1]

يتألم الشاعر لذكرى أعز الأصدقاء وأجملهم، الذين غيّبهم الموت في لحظة خاطفة، لم يتسن له توديعهم، حيث تركوه يعاني الشقاء في هذه الحياة وحيداً، ويستحضر جمعاً من التساؤلات في داخله، لماذا مضوا في الحياة سراعاً؟ لماذا مضوا ولم يقولوا إنهم راحلون وفيك البقاء؟ لماذا مضوا وما ودعوني؟

واستحضار هذه التساؤلات في نفس الشاعر يوحي بألم الفاجعة، ومدى وقع الفراق الذي خلّفه الموت في فقد أصحابه، وجمال التصوير هنا أعطى الأبيات تأكيداً على حقيقة أن الحياة تمضي سريعاً كما يمضي السهم، وكما يعبر الغيم، وكما يسقط النجم، ويباغت الموت الأحبة والأصدقاء؛ ليفرق بينهم في لحظة سريعة دون أن

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 419.

يمهلهم وقتاً للوداع.

يقول الفليح:

سنلحقُكَ الآن
أو هو غداً
وربما بعدهُ..
إننا غافلونَ
بهذي الحياةِ
بل هي يا أجملَ الراحلينَ
بنا غافلة[1].

ويؤكّد هنا على الحقيقة المصيرية والحتمية التي لا بد منها، وأن كل نفس بشرية مآلها ومصيرها الموت والفناء، ولكن أحاط بنا داء الغفلة، وتناسينا هذه اللحظة.

يُشعل الشاعر نار الشوق والألم والحنين لفقد صاحبه، وأثر ذلك الحزن يظهر على كل الموجودات من حوله، يقول:

إلى أين تمضي
وتترك خلفك أنقى القصائد
أبهى القناديل
أزهى الورود

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 422.

أعذب الأصدقاء؟
آه وا ويلا
قلبي عليك
أيها المبتلى بالسديم المضمّخ بالموت
وبالهواء الذي يأكل الروح
بالغياب الرهيب وأشباحه النذلة المرعبة[1].

فهذه التساؤلات التي يطرحها على صاحبه الذي تألم كثيراً لموته، وفقده، وبلغ هذا الحزن كل الموجودات من حوله على أنقى القصائد التي خلّفها، وأبهى القناديل، وأزهى الورود، وأعذب الأصدقاء، وهو بذلك يتحسّر على قلبه الذي يرعبه شبح الموت حين يأكل الروح.

ويقول في موضع آخر:

يا أبيضَ القلبِ والروحِ
ليكلأكَ اللهُ برحمتهِ الشاسعة
ويأويكَ بجنتهِ الواسعة
وداعاً .. وداعاً[2].

ونرى الفليّح يرسل لروح صاحبه أصدق الدعوات، وأعظم الأمنيات بأن يشمله الله بعفوه، ومغفرته، وجنته إيماناً منه وتصديقاً

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 445.
(2) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 472.

بحياة الخلود الأبدية في جنات عدن، في خاتمة وداعية جميلة يملؤها الوفاء، والإخلاص، والصدق، والحب.

ويقول أيضاً:

«عظيمٌ هو الموتُ في الهمِّ. عظيمٌ هو الهمُّ في الهمِّ، عظيمٌ هو الهمُّ في الموتِ قبلَ اندلاعِ الجريمةِ.

ولكنني.. آه... متُّ يا تركوازية، قد أدمن الهمُّ قلبي، وأدمنَ قلبي همّ القلوبِ الدميمة» [1].

هنا يُعبّر الشاعر عن عظم الموت، ومدى وقعه على النفس، وأثر ذلك الهمّ الذي يخيّم على النفس ويسكن بها، في تصوير لأثر الحب الذي خلّفته محبوبته على قلبه، حيث أدمن الهمّ قلبه، وجميع القلوب الدميمة الجميلة، وهو تصوير لعمق الهم الذي يوقعه الموت على القلب، كعمق الهم الذي يوقعه حب معشوقته على قلبه، فكلاهما همّ يسكن قلبه.

ويقول كذلك:

الحداء:

نشيدُ الموت

وضراوةُ الأسلاف في وحشة الصحراء

الحداء:

(1) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 638.

شلال الدم
وجثث الأجداد في العراء
الحداء:
نداء البدو للوحوش
أو كواسر الطير إلى وليمةٍ من الأشلاء
الحداء:
عويل الفيافي لكثرة الدماء
وهو نعيق البوم، والغراب، والخراب
وهو خوار الضبعة العرجاء
وهو نواح الأم، والأخوات، والأبناء
على فتى قد مات من أجلهم
لكي يعود... بناقةٍ هزيلةٍ جرباء!![1]

يصوّر الشاعر الحداء في الأبيات بنشيد الموت والهلاك بكل معانيه، من (شلّال الدماء، جثث الأجداد، نواح الأم، والأخوات، والأبناء)، حيث يربط الحداء، وهو نشيد يؤديه البدوي ليجمع إبله وتتحلق حوله، وهذا البدوي معرضٌ للأخطار، وذلك نتيجة للطبيعة الصحراوية وما فيها من وحوش وهوام، وما يعانيه هؤلاء البدو عند ضياع دابتهم التي تحملهم وتحمل أمتعتهم، ومدى المصاعب

( ) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر سليمان الفليّح، ص 554.

التي يواجهونها عند قيامهم بالبحث عنها، فشبّه هذه الصعوبة التي يتحملونها، وهذه المخاطر التي يمكن أن تصل بهم إلى حد الهلاك بشبح الموت الذي يحيط بهم في عالمهم الصحراوي الشاسع.

وهكذا نرى فلسفة الموت عند الفليّح تحمل مضمونين مهمين، هما:

- الموت هو الحياة الأبدية والنعيم المقيم في دار الكرامة.
- الموت هو لوعة الفقد وألمُ الرحيل.